بؤس الواقع ونعيم الفن

قراءة في كتاب: الشاعر حمد الحجي

للأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين

د.أحمد يحيى علي محمد (*) - مصر

يمثل فعل الكتابة رحيلا يقوم على التفات ينجزه فاعله من واقع بملابسات وتفاعلات معينة تحظى بعلاقة تجمع هذا الفاعل بغيره فردًا كان أم جماعة إلى عالم مصنوع من الكلمات يشيده هذا الكاتب انطلاقا من سلطة تفرض نفسها عليه، هي سلطة الوعي وما يتدفق منه من خواطر قد تشكلت تبعًا لتأثر هذا الفاعل بعالمه المحيط وتأثيره فيه، وسبحان الذي خلق الإنسان، علمه بالقلم، وعلمه البيان، الذي يعني القدرة على التعبير والإفصاح والإيضاح، الذي به يستطيع إعادة إنتاج ما في العالم مما شاهده ومر عليه بناء على تجربته وسيرته فيه مفيدا من أدوات هذه الوسيلة التواصلية التي تمثل وعاء حاملا لحضارته وثقافته؛ إنها اللغة التي وضع فيها هذا الإنسان أشكالا أو لو شئنا قلنا: جعلها نجودًا يسير فيها الراكب الناطق المعبر راسمًا صورًا لنفسه وللعالم معها، والفن نجد من هذه النجود، والأدب فرع عنه، وفي هذا الأخير نجد فروعًا وطرقًا كثرًا، المسير عليها يتيح لصاحبه نعتًا يعرف به، فنقول: شاعر، ونقول: قاص، ونقول: روائي، ونقول: كاتب مسرحي..إلخ

(*) أستاذ الأدب والنقد المشارك بكلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر.

والكاتب السعودي الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين أحد هؤلاء الذين اعتمدوا الكتابة طريقًا للتعبير؛ فشق لنفسه في أرضها نجودًا يرحل فيها، جاعلا منها عَلمًا عليه، كأنه يقول: من هنا مررت، وموظفًا إياها في سبيل إسكان المجرد من أفكاره مستقرًا له قابلية البقاء والانتشار، ألا وهو اللغة المكتوبة، التي تمنح صاحبها عمرًا ثانيا يعكسه التقاء الآتين بعد بما صنعت يداه، وفي ذكرهم للفعل ذكر بطبيعة الحال للفاعل الذي قدر له ربه إنجازًا.

وكاتبنا المولود في مطلع الخمسينيات من القرن الهجري الفائت يطل علينا من نوافذ عدة، في كل واحدة منها نراه يرتدي ثوبًا مغايرًا، منها: ناقدًا، ومنظرًا للأدب، وشاعرًا، وروائيًا، وكاتبًا في حقل التاريخ، ومعلمًا، ومشرفًا على طلبة الدراسات العليا.

وفي كل نافذة من هذه له أثر به يعرف، ونحن في هذا البحث نحاول صحبته في هذا النجد الذي أكثر السير فيه وما يزال، ألا وهو (محمد بن سعد ابن حسين ناقدًا)؛ إن الاقتراب منه من هذه الزاوية يأخذنا إلى المكون الثقافي في شخصيته؛ فتخصصه الدقيق في الأدب والنقد اللذين حصل فيهما على درجتي الماجستير ثم الدكتوراه في جامعة الأزهر بمصر، وعمله المهني في هذا المجال أيضًا قد أتاح له وقوفًا عند أصحاب الكلمة التي توظف الرمز/ الخيال في سبيل تشييد رؤى تجسد مواقف وتجارب في حياة أصحابها لم يشاؤوا الإفصاح عنها بواضح القول وقريب الكلم، جاعلين من التلميح لا التصريح، ومن الخيال معراجًا لهم، وبلا شك فإن مجال النقد يسمح وفق ما يمتلكه من أدوات بإنجاز رحلات كهذه يسعى فيها إلى التنقيب في أرض المبدع الجمالية التي اختطتها مخيلته محاولاً استخراج ما تكنه ذرَّاتها من دلالات لا تحب الحياة فوق السطح.

حمد الحجي

ونستطيع من خلال صحبتنا للدكتور محمد بن سعد ابن حسين في كتابه «الشاعر حمد الحجي» الوقوف على مخطط في التحليل الأدبي يجمع بين ما هو داخل النص وما هو خارجه، نقصد بذلك هذه العين التي يمنحنا إياها الناقد لنرى بها جانبًا من السيرة الذاتية للمبدع موضوع المعالجة، التي من شأنها أن تبصرنا بما يمكن تسميته عوامل وأسباباً، أو لو شئنا القول: هذه الأوعية الحاضنة لمفردات تجاربه الشعرية التي تسكن عالمه الخارجي، في إطار علاقة شديدة الاتساق والانسجام تجمع بين التجربة الشعورية للأديب (حياته في واقعه وتأثره بما فيه وتأثيره فيه) والتجربة الجمالية الشعرية التي تمثل في موقعها ابنًا فيه كثير من مقومات الشبه الكثير مع هذه الأم (التجارب الشعورية للكاتب المبدع فوق أرض الواقع).

لكننا في سفرنا هذا برفقة د.محمد بن سعد نتساءل وتثير فينا الرحلة فضيلة البحث عن المعرفة:

- هل هناك علاقة تحظى بمساحات اتفاق بين حياة حمد الحجي البائسة وحياة كاتبنا د.محمد بن سعد؟
- أو لو شئنا قلنا: هل البؤس عنوان ينضوي تحته الكاتب الناقد، والمبدع محل المعالجة؟
- أو لو شئنا قلنا: هل تخصيص د.محمد بن سعد ابن حسين مجلدًا يتناول فيه عددًا من شعراء

البؤس كالحجي وآخرين يعكس على المستوى النفسي إحساسًا ربما يكون غير واعٍ له بأن هناك اتفاقًا في الحرمان والشعور بألم الفقد بينه وبين هؤلاء الشعراء؟

- هل نحن وِفْقَ هذا السؤال الفائت بصدد كاتب يرى نفسه في مرآة من يتماثلون مع تجربته ويقتربون منه في جانب من جوانبها، والحجي نموذجٌ لهؤلاء؟

ومن ثم في ظل قراءتنا لشعراء البؤس عند محمد ابن سعد بن حسين وقراءتنا لتجربته هو نستطيع أن نقف عند ما يمكن تسميته جملة تشبيه جمالية، طرفاها: مشبه: هو د.محمد بن سعد بن حسين، ومشبه به: شعراء البؤس ومنهم الحجي؟ مع مراعاة أسبقية الزمن في تحديد من هو المشبه ومن هو المشبه به.

إن الفن بصفة عامة على تعدد أشكاله وتنوعها هو مساحة تعبير وتنفيس تحرص الذات الفنانة من خلالها ليس فقط على تجسيد رؤية ولدت وبقيت مجردة في فضاء وعيها، ولكنه كذلك مرآة تعكس رغبة هذه الذات في إكمال ناقص تشعر به، إنه الوصول إلى دائرة اكتمال تنشدها في واقعها وتبدو مستحيلة يقول لها الفن بلسان الحال: إنها ممكنة؛ لذا فلا عجب أن نرى د.محمد بن سعد بن حسين الذي فقد نعمة البصر يتجاوز كثيرًا ممن يمتلكونها في الواقع بما قدمه من أعمال في بعض حقول المعرفة؛ إنه يعيد صياغة الفعل (أبصر) واضعًا له مدلولات تغاير ما في معجمنا العربي، تقول: إن الإبصار والرؤية الحقيقية تنبع من معرفة واقتراب من العالم ومشاهدة لما فيه وقراءة واعية يغلفها التخصص وليس الانعزال عنه أو الزهد في الكشف عما يدور فيه وإدراكه؛ من هنا يصير الإبصار الحقيقي هو العلم الذي يوازيه عطاء، الاستقبال لما في العالم الذي يعقبه إرسال ومنح تبرهن عليه أعمال حاضرة، ومن ثم فإن نَصَب الواقع تعالجه الذات الكاتبة بطريقة ذكية سمتها

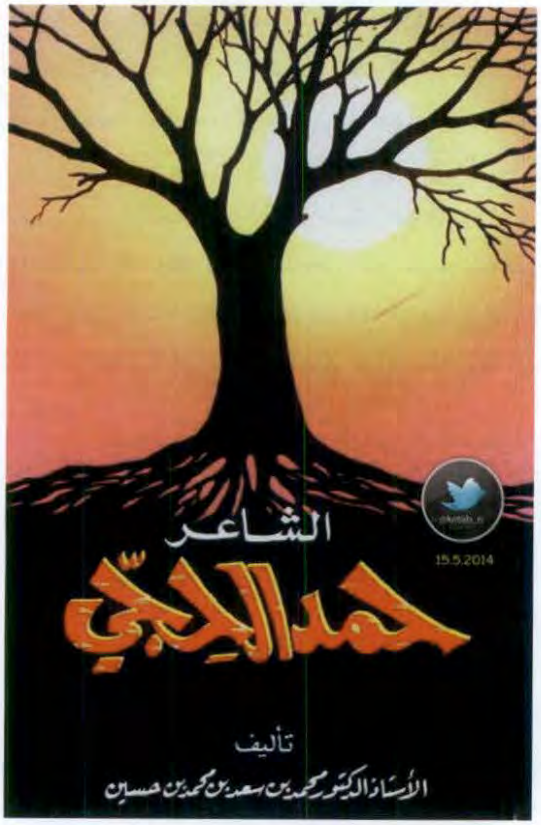

الفهم: إنها الفرار إلى الكتابة وتسجيل الحضور في داخل العالم الذي به تعرف، ويصير لها هوية وملمح خاص فيه.

إذًا فإن د.محمد بن سعد في ثوب الناقد الذي يظهر به وهو يعالج أحد شعراء البؤس (حمد الحجي) يقدم لنا برهانًا على هذه الفضيلة، فضيلة الاقتراب من العالم المعيش، وتصفح ما فيه، وإضافة رصيد جديد من المعرفة إلى بنيان الذات، وبعينه نرى:

- ملامح شاعر معاصر أوضح في مقدمة كتابه أنه من الفحول أمثال طرفة بن العبد في الجاهلية.
- وبصوته الذي تنطق به الحروف المكتوبة نستمع إلى إجابات تتكشف لنا من خلالها شخصية هذا الشاعر حمد الحجي: من هو؟، متى وأين وكيف نشأ؟ وما العوامل المؤثرة في شاعريته؟

- ثم نقف على لوحات من متحفه الشعري، ألا وهي نماذج من قصائده، يأخذنا إليها هذا الدليل.

هو الشاعر محمد بن سعد بن موسى الحجي يعود نسبه إلى هذيل، وقد ولد في العام ١٣٥٧هـ؛ إذًا هو واحد من أبناء جيل د.محمد بن سعد، عُرف أبوه بقرض الشعر العامي، وقد توفيت أمه وهو صغير، وكانت تلك أولى محطات الحرمان المؤثرة في حياته، يضاف إليها حرمان من نوع آخر، ألا وهو فقر الأب؛ إذًا فإن البائس الفقير حمد الحجي ينطلق في رحلة الحياة من مكونين للحرمان، الأول: عاطفي نفسي (فقده الأم)، والثاني (اجتماعي واقتصادي تشير إليه حالة الأب المتواضعة). أما مسيره التعليمي فقد التحق بمعهد الرياض العلمي عام ١٣٧٢هـ، وواصل الدراسة فيه حتى نال منه شهادة، ثم التحق بكلية الشريعة في الرياض عام ١٣٧٧هـ، تأتينا هذه القناعات من بوابة ورقة بحثية ألقاها د. محمد بن سعد بن حسين في شكل محاضرة ثم ألحقها بأخوات لها في كتاب جامع هو «الأدب الحديث في نجد»، ثم ما تلبث هذه المحاضرة أن تتطور على يديه لتصير كتابًا يتناول سيرة الشاعر حمد الحجي، هو الذي بين أيدينا الآن..

ومع ميل الحجي للغة العربية بشهادة قريبين منه يجمله إحساس مرهف وموهبة لقول الكلمة الشاعرة تم إلحاقه بالسنة الثالثة في كلية اللغة العربية.. وينضاف إلى أبجدية الحرمان عند الحجي شيء جديد؛ إنه المرض فقد أصيب بداء الوهم والوسوسة وظل يُعالج منه لزمن طويل ولم يبرأ؛ إذًا فإن مكونات البؤس عند الحجي تبدو في ثلاثة يجمعها عنوان واحد يعد بمثابة مشترك لفظي تنضوي تحته: فقد الأم، فقر الأب، المرض..

أما عن عصر الحجي فقد قضى قبل أن يشتد به المرض قرابة أربعة وعشرين عامًا بين١٣٥٧هـ، و١٣٨١هـ، منها خمسة عشر عامًا في بلدته مَرَات بإقليم الوشم، والباقي في مدينتي الطائف والرياض، ثم في لبنان، ثم استقر به المقام بمدينة الرياض في مدة بقي المرض فيها رفيقًا ملازمًا له، وقد عاش الحجي فترة أولها يمكن وصفه بالإجداب، وآخرها يمثل مرحلة نضج وعطاء، وقد واكب مولده مولد المدارس في نجد- وهي وإن كانت على نطاق ضيق- فلم تلبث أن اتسعت اتساعًا هائلا.

وفي اللقاء بالحجي عبر وسيط هو د.محمد بن سعد نجد أنفسنا على موعد مع صفة جديدة، يمكن أن تكون عصا نتوكأ عليها في المسير في دروب شعره، ألا وهي الصفة (قروي)، والحديث عن شعره حديث عن قصائده من حيث الكم؛ فهي قليلة، ومن حيث الوجود فهي منجمة متناثرة هنا وهناك في بطون جرائد وعند بعض الأصدقاء، قُدِّر لها أن تتجاور في هذا الكتاب الذي اختصه به كاتبنا محل الدراسة د.محمد بن سعد.

وفي التجوال بين لوحاته الشعرية نستطيع أن نقيم ربطًا بين داخل النص (التجربة الشعرية/القصيدة) وخارج النص (التجربة الشعورية/السيرة الذاتية للشاعر) في إطار ثنائية (الفاعل/المبدع، والمفعول/الإبداع) وأثر الأول في تشكيل الثاني وفي عمق دلالاته؛ فمن خلال العرض البانورامي الذي قدمه د.محمد بن سعد لإبداع الحجي يمكن الوقوف على قناعة مفادها أن السلطة التي كانت تملي على هذا الشاعر كلمته، وتفرض عليه توجهًا يسير فيه وهو يقرض شعره، تتجلى في هذه المفردة (البؤس) التي تعد بمثابة فاعل مضمر يختفي خلف هذا الفاعل الظاهر أمام العيون (كيان الشاعر)، ويبدو أن هذه المفردة هي المسؤولة عن هذه الصبغة الرومانسية المعتمدة على الانفصال عن العالم، والاحتماء بالطبيعة يتخذ منها ما يشبه أصدقاء له وهذه النزعة التشاؤمية التي لم تبرحه في عوالمه الفنية..

وفي خلال رحلة المتابعة داخل متحف الشاعر الحجي بصوت د.محمد بن سعد معلقًا وآخذًا بيد الزائرين من محطة شعرية إلى أخرى نصادف موازنات تعتمد على المقارنة بالقديم من جانب عندما يتحدث د.محمد عن العلاقة الرابطة بين الحجي والمعري، والصلة بالجديد عندما تحدث عن العلاقة الجامعة بين الحجي وأبي القاسم الشابي، ومساحات الاتفاق بين الاثنين من جانب ثانٍ، ثم يختم كتابه بانفتاح ولقاء مع د.طه حسين واستشهاد برأيه فيما يخص مسألة الألم والتعذب بالتجربة: هل تخرج من إحساس صادق أم إحساس مصطنع!؟

ويبدو أن هذا الالتقاء من قبل د.محمد بن سعد بطه حسين ينطوي على كامن في اللاوعي يحيل إلى وجه الشبه الرابط بين الاثنين على مستوى مكابدة الحياة بصحبة إحساس بالفقد؛ فكلاهما ضرير، كلاهما أحب الفكر وأحب القلم الذي به يعبر عنه، كلاهما أحب الأدب قراءةً وكتابةً.

وهذه مقتطفات من بعض لوحات الحجي الشعرية التي أوردها د.محمد بن سعد بن حسين في كتابه عنه:

من قصيدة «في زمرة السعداء» التي قرضها عند دخوله الجامعة:

أأبقى على مر الجديدين في جوىً
ويسعدُ أقوام وهم نظرائي
ألستُ أخاهم قد نظرنا سوية
فكيف أتاني في الحياة شقائي
أرى خَلْقهم مثلي وخلقيَ مثلهم
وما قصَّرت بي همتي وذكائي
يسيرون في درب الحياة ضواحكًا
على حين دمعي ابتل منه ردائي

إن هذه القصيدة تشكل منطلقًا ومفتاحًا في محاولة تأويلية ورغبة في إظهار الجانب الفلسفي الحاكم لتجربة الحجي؛ إن الوقوف على مجمل ما قدمه هذا الشاعر وأورده عنه د.محمد بن سعد يضعنا أمام ثنائية لم تفتأ تلقي بظلال مؤثرة في وعيه، ألا وهي ثنائية (الأنا والهو)، أي الذات في مقابل عالم لم يقدم إلى هذه الأنا ما يدفعها إلى الشعور معه بأمان الاحتواء ورغد المقام؛ لذا فإنها وجدت في فضاء الفن سبيلا للهروب وملجأ للنجاة، وفي تكرار ضمير المتكلم الأنا بين أرجاء عالمها الفني وليس في هذه القصيدة وحدها انعكاس لإحساس الغربة والانفصال الذي جعلها تلتف حول ذاتها تحدثها وتنصت إليها، في عملية مونولوجية هي فيها الاثنان معًا، أي الناطق بما يدور في خلدها، والمنصت.

إن هذا التجريد الشعري - بالإفادة من هذا المصطلح في بلاغتنا العربية - ينبع من أزمة نفي، أي أزمة قدرة على إثبات حضور ذي صبغة جمعية سمتها التعاون والتشارك والاندماج، هذا النفي على المستوى الواقعي بالنظر إلى سلوك الذات الشاعرة يقابله حضور وإثبات على المستوى الفني تكشف عنها كلمة الشاعر، وبنيان القصيدة الذي يجد فيه مستقرًا حقيقيًا له..

هذه الحالة شديدة القلق والتوتر يجليها ويؤكدها جماليا ذلك المقطع من قصيدة «ثورة نفس»:

في سكون الليل قدت الزورقا
قاصدًا شطء رجائي الشيقا
مبحرًا نحو الغد المجهول في
حُلكة لم أجلُ فيها أفقا
كم يثور البحر حولي مُزْبدا
لاهبَ الغَضْنِ مَغِيْظًا مُحْنِقَا
حَمَلتْ أمواجُه من قاعه
زَعَقَات الذعر ممن غرقا

في إشارات د.محمد بن سعد وهو يعلق على ما يورده من قصائد للحجي إصرارٌ على تسليط أضواء على هذه

الحالة النفسية وتجلياتها في أشعار الحجي؛ إنها شعور الحزن الدافع إلى الانفصال والاغتراب عن العالم والشق الجمعي المتمثل في صلات أهله من البشر وتفاعلاتهم؛ من هذه الحالة وأماراتها الجمالية المتمثلة في الاستبدال بالأصدقاء التقليديين من البشر أصدقاء غيرهم من عالم الطبيعة، كالبحر على سبيل المثال في هذه القصيدة، نستطيع أن نضع أبجدية للحزن الذي تتم صياغته شعرًا عند واحد من منتسبي الاتجاه الرومانسي في أدبنا العربي الحديث، ألا وهو الحجي: عاطفة مأساوية سلبية، تتجسد وتتحدد في إحساس بالغربة، ابتعاد، رحيل إلى القصيدة، وفرة في توظيف ضمير المتكلم أنا؛ لذا لا غرو أن نجد د.محمد ابن سعد يقيم موازنات تقوم على تماثل التجربتين، بين الحجي والشابي من جهة، والحجي ورهين المحبسين الضرير أبي العلاء المعري من جهة ثانية.

وهذا نموذج ثالث، مقطع من قصيدته «مناجاة عصفور»:

يا أيها الشادي المغرّدُ هاهنا
ثملا بغبطة قلبه المسرور
متنقلا بين الخمائل تاليا
وحي الربيع الساحر المسحور
غرد ففي تلك السهول زنابقٌ
ترنو إليك بناظر منظور
غرّد ففي قلبي إليك مودة
لكن مودة طائرٍ مأسور

وتمثل هذه الحالة الحكاية إطارًا حاضنًا لتجربة الشاعر الشعورية المرتبطة بواقعه وملابسات حياته فيه، ومن هذه الحكاية (الإطار) الواقعية خرجت مولوداته الفنية (قصائده) التي تدخل فيما يمكن تسميته علاقة

ترادفية تقوم على التشابه مع نظيرات لها في بنيان أدبنا العربي قديما وحديثا.

وحرص د.محمد بن سعد على الكشف عن وشائج القربى بينها وبين الحجي أحد شعراء البؤس الذين وقعوا في دائرة اهتمامه، الذي يمكن القول: إنه بتناوله لهم إنما يناقش حالته النفسية هو المنطلقة من حرمان لا دخل له فيه، هو من القدر، ألا وهو الحرمان من نعمة البصر؛ فوجد في الكلمة التي بها يتناسى حرمانه، ويسعى إلى النهوض بعملية تعويض نفسي ناجحة له ضالته من خلال عيون كثيرة تركها في مكتبتنا العربية، وتمثلها كتاباته الكثيرة في مختلف حقول المعرفة، ولا نجد إلا أن نردد معها قوله تعالى: «فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفَاء وأمَّا ما ينفعُ النَّاس فيمكثُ في الأرض». (الرعد: ١٧) ■

للإفادة يمكن الرجوع إلى:

- دائرة المعارف العالمية على شبكة المعلومات الدولية، WWW. wikipedia.org
- أ.د محمد بن سعد بن حسين، الشاعر حمد الحجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، نسخة إلكترونية بي دي إف.